يالیـــــل . . . !

للأستاذ الأسدى محمد خير الله

- ٢ -

المذهب السادس :

وقبل أن نمضى فى تحقيقنا نورد هنا مذهبا لنا سادسا ، كنا على أن نجهر به قبل أن نتولى البحث بما يفرده العلم من حجج ، أى أننا كنا نتحسس به ، كما هو شأن أرباب المذاهب المتقدمة ، دون حجة ولا بينة ، ذلك أننا كنا نرى فى « يا ليل » مجرد إرسال النغم ، أو قل : تجسيده بالفاظ لا معنى لها ، شأن موسيقى اليوم لدى إرسالها بالنغم : لى للى لى لم .

والبحث الذى نستقبله كفيل أن يعلم أن الكلمة تنتمى إلى أصل ذى معنى ، ثم استعملت لهذا التجسيد .

نعم كثر ما جاء فى الغناء من ألفاظ لا معنى لها ، غير أن « يا ليل » ليست من قبيلها . ومن هذه الألفاظ : « عل يادر يادر يادر يابو العبيسية » ، ومنها « دلى يا دلى دلعونا » ، ومنها ما يستعمله المراقيون فى مقام البنج كاه — كما يحدثنا الصديق الطيب رجائى — فى قولهم : « هى داد بداد هى جان دلى دلى داد

فالكلمة إذن ذات معنى مجهول سيأتى كشفه كما كشف لنا الأب بخاش[1] عن سر « الله يسوى دوص دوص ها بيباها » الترتيلة المستعملة فى أعراس حلب دون غيرها .

مذاهب أخرى :

وهناك مذاهب سمعناها من شتى المصادر لا تنتمى إلى شىء مما يحفل به العلم ، وهى أن أصل « يا ليل » يا ويلى « وشفيعه أن الحزن من مستلزمات الغناء العربى ، ولا يزال العلويون يغنون :

ويل ويـلى بوطنجو عـــلا جنبو قربينه

أو أن أصلها يا لآلى جمع لؤلؤ ، كأنما ينادى أحبابه الجميلين الشبهين اللآلى . أو أن أصلها يا لى يالى أى يا من أنت لى . أنشدنى زجّال لبنانى فى دار الأستاذ الفيكونت دى طرازى :

قلتلا شـــو اسمك قالـــت لولـــو
قلتـــلا لى لـــى قالت لى : لا لا

وهو من تلاعب البديعيين ، وقد سبق إليه .

أو أن أصلها يا أليلى بمعنى يا أنينى مما أبدلت نونه لاما ، كقول ابن ميادة :

وقولا لها ما تأمرين بوامق له بعد نومات العيون أليـل

أو أن أصلها يا ليل بكسر اللام : صنم أضيف إليه ، كعبد يغوث وعبد مناة وعبد ود استعملت بعد التحريف للغناء ، لأنه ربما يكون إلها للحب كما كان لليونان إلٰه له . أو أن أصلها هلل العبرية ، بمعنى سبح ، وقد سميت مزامير داود تهليم ، أو تصدر جل أبياتها بهللويه أى : سبحوا الله .

تحقيقنا في يا ليل :

لنمض بعد ما تقدم إلى مهمتنا فى التحقيق ، ولنتساءل : يا ليل : وأين يا ترى تردد يا ليل ؟ أليست تردد فى مطلع هذا الضرب الغنائى المسمى لدى العامة بالموال ؟ حسن لنبحث الآن عن الموال فى معاجمنا العصرية التى فسحت بعض المجال للمفردات العامية . ها هم أولاء الأساتذة لويس المعلوف فى المنجد ، وفؤاد البستانى فى منجد الطلاب ، وجليم دموس فى قاموس العوام ينصون فى معاجمهم هذه على أن الموال والجمع المواويل محرف الموالیا . انركن إذن إلى هذا النص ، ولو جدلا ، ثم لنتساءل : ما الموالیا ؟ ذلك ما يجيب عنه الزبيدى اسمع مؤدى ما ينقل عن حاشية الكمبية للبغدادى ، وإذا ذكرت البغدادى لا أتمالك من إبداء عاطفة الزهو والاغتباط ، إذ أنه احتفظ فى آثاره بكثير مما وعته الخزانة العربية الضائعة . نعم لنسمع صدى البغدادى يقول : الموالیا نوع من الشعر ، اخترعه أهل واسط من مدن العراق ، اقتطعوا من بحر البسيط بيتين ، وقفّوا شطر كل بيت بقافية ، تعلمه عبيدهم والغلمان ، وصاروا يغنون به على رؤوس النخل لدى جنيه ، وفوق سواقى سلالم البناء ، ولدى سقى المياه ، وفى

(١) أنشودة العرس فى الفصحاء ط لبنان .

نحو هذا من الأعمال ، وكانوا يرددون آخر كل صوت : « يا مواليا » إشارة إلى سادتهم ، فسمى بهذا الإسم ، ثم استعمله البغداديون فلطفوه حتى عرف بهم دون مخترعيه إلى أن شاع .

أقول : ولعل فى المطلع القديم المشهور الماعا إلى ما ذكر :

القول قول العجم : آه يا مواليا يا بيض لا ترحلوا ضلوا حواليا

ثم اسمع مؤدى ما يحدثنا به زيدان[1] : وفى العصر المغولى الممتد من القرن السابع الهجرى إلى القرن العاشر وضع ضرب من الشعر العامى يقال له : الموالياً ، كان فى بغداد .

وها هو ذا ابن خلدون يقول[2] : وكان لعامة بغداد أيضاً فن من الشعر يسمونه الموالياً ، وتحته فنون كثيرة ، يسمون منها القوما وكان وكان ، منه مفرد ومنه فى بيتين ، يسمونه دوبيت على الاختلافات المعتبرة عندهم فى كل واحد منها ، وغالبها مزدوجة من أربعة أغصان ، تبعهم فى ذلك أهل مصر القاهرة وأتوا فيها بالغرائب ... بمقتضى لغتهم الحضرية .

ثم يمضى ابن خلدون فى سرد طائفة منهـا « نجتزىء » بذكر واحد :

طرقت باب الحبا ، قالت من الطارق ؟

فقلت : مفتون ، لا ناهب ولا سارق

تبسمت لاح لى من ثغرها بارق رجعت حيران فى بحر أدمعى غارق

والأبشيهى[3] يعقد فصلا لمختارات المواليا ، نورد منها :

وقد أوعدونا المنايا أننا نخلو فى ظل بستان حافف بالتمر نخلو

والظل من فوقنا قد بلنا نخلو ومن كلام الأعادى قط ما نخلو

والبستانى[4] يتحدث عن المواليا : وفى أصل المواليا أقول أشهرها أن هارون الرشيد أمر بعد نكبة البرامكة أن لا يرثيهم أحد بشعر ، فرثت إحدى جواريهم جعفرا بشعر غير معرب ، حتى لا يعد شعراً ، وجعلت تقول بعد كل شطر يامواليا ، قالت :

يا دار أين ملوك الأرض أين الفرس

أين الذين حموها بالقنا والترس

قالت : تراهم رمم تحت الأراضى الدرس

سكوت ، بعد الفصاحة ألسنتهم خرس

قال الأستاذ ويل well[1] وهو أول ما عرف من الموال .

وقال مؤتمر الموسيقا ، يقال إن أول ظهوره كان فى بغداد ، بعد الفتك بالبرامكة ، قال الجلال فى شرح الموشح (ثم ذكر القصة المتقدمة وزاد عليها) .

قيل إن الرشيد حينما بلغه ذلك دعا الجارية ، وأراد معاقبتها على مخالفة أمره ، فقالت : يا أمير المؤمنين ! أنت منعت رثاهم بالشعر ، وهذا ليس بشعر لأنه لا يجرى على الفصيح ، فاقتنع

والمواويل نوعان : الحضر والحر ، والنوع الأخير شائع فى صعيد مصر ، ويمتاز بالأكثار من التغيير فى ألفاظ قوافيه حتى تتجانس[2] .

وأعاريضه يشبهها ضربها ، وهى فاعلن وفعلن وفعلان[3] .

والأستاذ ويل well[4] يطلق كلمة « موال » لا « مواليا » حين سرده بعض المعلومات المتقدمة ذاهبا إلى أن الإسمين لمسمى بعينه وأن الثانى محرف الأول — على ما نتصور — ثم زاد : والموال هو أحد الفنون السبعة المعروفة اليوم فى الأغانى الشعبية بل هو أكثرها شهرة ، تصادفه فى كل مكان من العراق حتى مراكش ، ومنشأه المدن خلاف العتابا التى نشأ فى الصحراء ، ويجوز فيه استعمال اللغة الفصحى ولغة المحادثة ...

ويكون غالباً من أربعة أشطر أو خمسة أو سبعة .

والقافية فى الأول واحدة ، أو يشذ عنها الشطر الثالث فقط

وشاع استعمال ذى الأشطر الخمسة فى مصر وتلمسان ، والقافية فيه واحدة دون الشطر الرابع ، ويسمى بالموال الأعرج ، وتلمسان تسميه بالحوفى . ومن الطريف أن نشير إلى أن ابن خلدون ذكر هذا الإسم وعده من فروع الموال ، ولكن طبعة بولاق استبدلته بالقوما .

أما ذو الأشطر السبعة فيدعى بالموال البغدادى أو النعمانى

(١) تاريخ الأدب السطر ٢ ج ٣ ص ١١٧

(٢) المقدمة الحيرية ص ٣٤٩ .

(٣) المستطرف ط المحمودية ج ٢ ص ٢٨٦ .

(٤) الالياذة ص ١٥٢ .

(١) الموسوعة الاسلامية الفرنسية ١ : ٤٧٤ .

(٢) مؤتمر الموسيقا العربية ص ١٧ .

(٣) ميزان الذهب للهاشمى ص ١٥٢ .

(٤) الموسوعة الاسلامية الفرنسية ١ : ٤٧٤ .

ويطلق مايسنر meissner عليه إسم الزهيرى « بالإمالة » أو الزُهيرى كما هو اسمه فى بغداد ، والقافية فيه قافيتان ، فالأشطر الثلاثة الأولى بقافية ، والأشطر الثلاثة الأخرى بقافية مغايرة ، والشطر الأخير يرجع إلى القافية الأولى .

أما شهاب الدين فى سفينة الملك[1] فيسمى الموال المخمس بالأعرج ، والمسبع بالنعمانى مقتصراً على ذلك .

وعند جميع المحققين أن الفنون السبعة (المتقدمة) منها ثلاثة معربة أبداً ، لا يغتفر اللحن فيها ، وهى الشعر القريض والموشح والدوبيت ، ومنها ثلاثة ملحونة أبداً وهى الزجل والكان وكان والقوما ، ومنها واحد هوالبرزخ بينهما يحتمل الإعراب واللحن وهو الموالیا ، وقيل : لا يكون البيت منه بعض ألفاظه معربة وبعضها ملحونة ، فان هذا من أقبح العيوب التى لا تجوز وإنما يكون المعرب منه نوعا بمفرده ويكون الملحون فيه ملحونا لا يدخله الإعراب ، وقد أوضح قاعدة الجميع وأمثلتها صفى الدين أبو المحاسن الحلى فى ديوانه وسماه بالعاطل الحالى والمرخص الغالى[2] .

* * *

انتهى حديث المصادر . ومنها يتضح صحة ما ذهب إليه معجميونا المعاصرون من أن الموال من الموالیا ، يؤيده :

١ — التقارب اللفظى بين الموال والموالیا .

٢ — كون النظم فى كليهما تعتوره العامية .

٣ — كون الوزن فى كليهما من بحر البسيط .

٤ — كون أحكام القافية فى كليهما واحدة .

٥ — كون الأعاريض فى كليهما يشبهها ضربها .

٦ — كون الأعاريض وضربها فى كليهما فاعلن وفعلن وفعلان .

٧ — أن فى كليهما لازمة تردد : هناك يا موالى وهنا يا ليلى

٨ — أن الموالیا والموال للغناء .

٩ — الغناء فى كليهما مرسل .

١٠ — أن كليهما مصدر بيا .

١١ — إطلاق الموسوعة الإسلامية كلمة الموالیا .

فاذا كانت هذه القرائن كفيلة أن تقيم الدليل على أن الموال من الموالیا كان من الحق أن نحكم أن لا زمة هذا لا زمة ذاك ، وبعبارة أوضح أن « يا ليلى » تحدرت من يا موالى محرفة مطورة تطوير الطبيعة حافر الفرس من زعانف السمك ، ما فى ذلك عندنا من ريب .

فالموال إذن من الموالیا ، لا فعال من موله بمعنى صيره ذا مال كأنما يمول صاحبه — كما يذهب الزميل الأستاذ أحمد إيرى — ولا أصله مؤول ، لما أن القافية الأخيرة تؤول إلى القافية الأولى — كما يذهب الصديق الطبيب فؤاد رجائى —[1] .

وظنى أن لازمة الشرقاوى « يابابا » أو « يابابای » عدول أتى به الأشراف أو غير الموالى ، بعد أن تبوأ الموال مكانه فى الغناء العربى ، فكأنما أقاموا أياهم مقام المولى .

سبيلنا الآن بعد أن بلغنا غايتنا أن نعقد الصلة بين يا موالى ويا ليل — إن كان ذلك متاحا — الحقيقة أن كرور العصور وكثرة التداول طمسا معالم الأصل فى يا ليلى ما خلا النداء واللام والياء فبعد الشبه ، حتى لا تكاد تتوسم فى هذا الفرع ملامح الأصل إذ ليس ثمة لون من ألوان الاشتقاق المعهود فى اللغة يصار إليه ، الأمر الذى يجعل الملتمس من وراء الطاقة ، وإن كانت إجابة ، فانما هى ضرب من الظن والتخيل ، إلا أن نذهب إلى أنه اشتقاق على غير حدود الاشتقاق القياسية ، بل ما لنا نطلق كلمة الاشتقاق وللاشتقاق حدود ، لنقل : هذه وتلك محرفة بعامل الزمن وبعامل كثرة الاستعمال ، كما هو شأن هذه العاديات فى المتاحف ، وأجدنى الآن على حافى الاطمئنان ، وقد لمع فى مخيلتى غمر من الكلمات كان شأنها شأن هذا .

(البقية فى العدد القادم) الأسرى محمد خير الله

(١) ص ٣٨١ .

(٢) والموال هو شطرات من بحر البسيط غالبا ويرتجل تلحينها مع عدم مراعاة أحد الأوزان الموسيقية ، بل يراعى فيها المقامات . مؤتمر الموسيقا العربية ص ١٦٤

(٣) المستطرف ط المحمودية . ٢ ، ص ٢٢٧ .

(١) ولا أصله مموّل — كما يذهب الصديق الأستاذ حسام الدين الخطيب ، قال : ألا ترى أن حفلة الطرب المكينة تبدأ بتماسيم العود من الرصد مثلا ، يتلوها عزف صامت من الجوقة كلها على النغم نفسه ، ثم تعزف الكمان تقاسيمها قلقاً كيد به ، ثم يولج فى موشح رافد الرصد ، ثم يمهد القانون بليالیه الرصدية ، وهنا تكون مخيلة المغنى مترعة بتنمة الرصد وتعليلاتها أو قل : ساطت على حد تعبير الموسيقيين ، فتنطلق بالموال فى أعنان الرصد فى جو حر فسيح ، وعلى هذا فالموال قد موله كل هذه المهيئات ، فهو مموّل .